

الأزهر

وعوامل الرجعية فيه

مهما عزی الى الأزهر من فضل على اللغة والدين ، ومهما قيل عنه من العبارات التي يراد بها اظهار المفخرة بالمجد التليد وفضل الاقدمين قبل أن يراد بها التعبير عن الحقيقة المستكنة وراء تلك المعاني الشعرية ، ومهما قلنا عنه - صوابا أو غير صواب - انه ظل زمنا غير قصير يمثل الروح العلية في جو مملوء بالجمالة والغباء ، وينشر على الناس شعاعا يضيء لهم جوانب نفوسهم ، فلا يمكننا أن ننسى انه كان من اكبر العوامل على اظهار الاسلام بغير مظهره الحقيقي بايجاد ذلك النظام الكهنوتي فيه ، ذلك النظام الذي يتنافى مع جوهر الاسلام ونصوصه الجلية الصريحة . وبقي هذا النظام حتى اليوم كأنه جزء من النظم الدينية والتقاليد الصحيحة ، وصار من الثابت في اذهان الكثير من شيوخ الأزهر ودهماء الناس ان وجود طائفة دينية النزعة والتربية والمظهر الخارجى ، تتبع نظاما طائفيا خاصا ، وتتشفق تثقيفا دينيا محضا لا يشوبه شيء من الثقافات الأخرى ، تتقدم الناس في أمور دينهم وتظل صاحبة الحل والعقد في هذا الدين ، وتكون هي المختصة بفهم نصوصه وتوضيح مسائله وتأويل مشكلاته ، والحكم على هذا وذاك بالكفر والالحاد والمروق والفسوق وغير ذلك من الدرجات ! . صار من الثابت أن وجود هذه الطائفة واختصاصها بما اختصت به نفسها جزء من التقاليد الدينية التي يعتبر افكارها ومعارضتها من باب الفسوق والالحاد ! اذ هو انكار لجزء جوهرى من الدين !!

واكتساب هذه الفكرة صفة القداسة اسبغ على الأزهر هذه الصفة نفسها ، فاصبح هذا المعهد الذى نفخر بأنه اقدم معهد على مكانا قدسيا ! لأنه يخرج لنا هذه الطائفة المقدسة وكما كانت هذه الفكرة ضلالا في الدين ووهما لا أساس له ولا أصل يعتمد عليه من نصوصه الكثيرة وتاريخ صدره الأول فقد اصبحت شؤما على الأزهر بصفته كائنا حيا له كل ما للحياة من نوااميس تقضى بالسير الى الامام والتقدم المطرد نحو الغاية المثلى ،

اذ ان هذه الصفة متى لابتست أمرا من الأمور أو نظاما من النظم اصبح من العسير تغييره وتعديله لأجل أن يتلاءم مع أوضاع الحياة

وهكذا ترى أن هذه الفكرة الخاطئة وهذا النظام الأخرق اكبر عامل من عوامل الرجعية في الأزهر ، واهم عنصر من عناصرها المناوئة لنظام الحياة ونواميسها

والدليل حاضر بين ايدينا فان جميع الذين كانوا يعارضون الاستاذ المراغى شيخ الأزهر السابق انما كانوا يعارضونه باسم الدين وبأن هذا النظام الذى يرسمه للدراسة في الأزهر يجعله معهدا مدنيا لادينيا، فهم كانوا فى الواقع يدافعون عن النظام الكهنوتى الذى يقوم الأزهر عليه بالتيهة والاعداد ، ونعتقد أن فشل الأستاذ المراغى فى اصلاحاته التى ظل قائما عليها عاما ونصف عام تقريبا لم يكن الا بتأثير هذا النظام الباطل المشؤوم والاعتقاد بان الاسلام يقسم اتباعه الى رجال دين ورجال دنيا.

وفى أى نص من النصوص الدينية وجد هذا التقسيم ؟ ليست ثمت ما يمكن أن يعتمد عليه فى وجود نظام كهنوتى كهذا النظام الذى يدافعون عنه ويقيمونه فى وجه كل مصلح يريد ترقية الأزهر بحيث يساير الحياة العصرية

على أن نصوص الاسلام لا يقتصر الأمر فيها على عدم وجود مثل هذا النظام بل هى تكاد تنص على ان وجوده مخالف لقاعدة المساواة بين الناس وانه لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى والعمل الصالح. فوجود هيئة دينية تستمد وجودها منه ، وتميز عن بقية الهيئات الأخرى وتدعى الاشأن لها الا بالدين وحده وان ما عداه من علم وغيره امور مدنية لا تعنيهم (١) وانما تعنى اربابها من الرجال المدنيين ضلال لا وجود له فى الاسلام وليس فيه ما يبرره

وانى لأعجب أشد العجب من هؤلاء الناس الذين يحرمون لبس القبعة لأن فى لبسها تشبهاً باهل الأديان الأخرى ، ثم هم فى الوقت نفسه يقتبسون نظاما دينيا خاصا متبعا فى تلك الأديان ليس له اصل فى دينهم بل يلصقونه به الصاقا ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون ، فاذا كان لبس القبعة - وهو لا يمس الدين فى قليل ولا

(١) ادعى هذا الشيخ عبد الرحمن عlish « أحد افراد هيئة كبار العلماء » فى

رده على مذكرة الاستاذ المراغى عن الأزهر

كثير - يعتبر عندهم من باب الفسوق والعصيان، فاحر بان يكون الصاق نظام بالاسلام
وليس فيه ما يقره من الكفر والالحاد . . . ونعوذ بالله ونستغفره !

ولسكن اين شيوخ الأزهر من روح الاسلام وان ادراكها يحتاج الى فطرة سليمة
وذوق عربي صاف وقد افسد ذلك عليهم تلك التمجلات الفارغة والتأويلات المصطنعة
والعبارات السمجة المستعجمة التي ولعوا بها ايما ولع

ان تلك الروح التي ترمى الى المساواة ووحدة الجماعة الانسانية كانت هي الروح
الغالية على الجمعية الاسلامية الاولى، فلسنا نعلم بين افرادها طائفة اختصت نفسها بالدين
وحده وأخرى سعت الى الدنيا فقط. ولقد ادرك هذه الحقيقة كثير من علمائنا المتقدمين
وحرصوا عليها كل الحرص حتي ان ابن تيمية - ومنزلته في العلوم الدينية لا يمكن انكارها -
انكر بشدة على بعض الفقهاء والمعاصرين له ما يتخذونه من الالبسة الخاصة والاردان
الواسعة التي تميزهم عن غيرهم ولما في ذلك من تفريق الأمة. فليسمع شيوخنا الأجلاء
الذين يأبون الا هذا التفريق ويأبون الا أن يتخذوه اداة يحاربون بها كل مصلح.
ويأبون الا أن يسموا تلك الأداة بسمه الدين

وادرك هذه الحقيقة أيضا من علمائنا المعاصرين كل باحث في الاسلام بحثا
مجردا، ناظر اليه نظرة بعيدة عن الانخداع بتلك التقاليد المبتدعة، والرسوم المصطنعة،
فقرى الأستاذ وجدى - وليس من يستطيع ان ينكر مكاتته في المسائل الدينية وما اليها -
يقول « هذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادئ الدين الاسلامي
من كل وجه ومعارض لأوامره بل ومعطل لأكثرها تعطيلًا »

والخلاصة ان النظام الكهنوتي الذي ترعرع في احضان الأزهر - كما نظن - رغم
اقت الاسلام ونصوصه الصريحة وروحه الجليلة، يمثل اليوم اكبر غنصر للرجعية
وأشد مناوىء للنواميس الطبيعية، وأقوى عامل على هدم الأزهر بعد أن عمل هذ
على تقويته وانمائته

والعامل الآخر الذي يعمل على الرجعية في الأزهر دأبا هو الشيوخ أنفسهم
لا بصفقتهم ممثلين للهيئة الكنوتية . بل بصفقتهم شيوخا أزهريين - وأنت تعلم أن
هؤلاء الشيوخ هم قوام الأزهر الوحيد سواء في الادارة أو في التدريس

أما كونهم شيوخا فلا ن الشيوخ هم أبعد خلق الله عن الرغبة في التجديد، وأشدهم تمسكا بالقديم على أى حال كان، وشيوخ الأزهري لا يمكن أن يخرجوا على هذه الطبيعة — خصوصاً وان تربيتهم العقلية وثقافتهم العلمية بما يقوى هذه الطبيعة كل التقوية — فالنظم القديمة والكتب القديمة والدراسة القديمة هى أصلح ما يمكن، اذ ليس فى الامكان أبدع منها !!! ذلك أنهم قضوا فى القديم زهرة شبابهم والشباب أعز شئ عندهم اذ هو الذى يثير فى نفوسهم أجمل الذكريات وأحلاها ! وكذلك لأنهم يحسون احساساً داخلياً بأن فى التجديد طعنا فى كفاءتهم الشخصية ومقدرتهم العلمية !! وليس أشد ايلاما لهم من هذا بعد أن قضوا فى الدراسة وقراءة الكتب والمطولات سنين شبابهم وأوقات كهولتهم، فمن الطبيعى اذن أن يكونوا من أجل شيخوختهم هذه أشد عداء للتجديد وانصار الرجعى

وعندى أن هذا دليل واضح جدا على نقص تربيتهم العقلية . أو على اتجاهها اتجاهها مخالفا، اذ لو لم تكن كذلك لكان لهم من عقلهم عاصما يعصمهم من الانخداع بالآوهام والخضوع للأحلام

وصفة الأزهريه متممة لصفة الشيوخوخة فى التكوين الرجعى، فكثيرا ما نرى لشيوخ على غاية ما يكون من النشاط العقلى والحوية الفكرية ثورة على القديم المتهمرهمها تغلغل فى أعماق العقل الباطن؛ ذلك لأنهم لم يكونوا أزهريين فى حياتهم العلمية على أن اعتبار وجود حياة علمية للشيوخ الأزهريين ليس الا خطأ أو على سبيل التوسع فى التعبير فان ذلك الذى يتشددون به، ويعيشون من فضله، ويشقون منه وصفا لهم ولقبا يحملونه فى كل مكان ليس علما بالمعنى الذى نفقهه الا تجاوزا فقط، وحتى علم ماوراء الطبيعة الذى يتصل بالدين اتصالا وثيقا لا يعلمون منه الا مجموعة رثة من المعارف التقليدية والاساطير والخرافات. ومع تقدم هذا العلم، وتقدم المباحث التى قد تودى الى اعتباره من العلوم الرسمية، قانهم لا يزالون ساذجين فى غفلتهم لا يعينهم من العلم الا العكوف على تلك الكتب التى لا ندرى أعربية هى أم أعجمية أم بين هذه وتلك ؟ وماذا فى هذه الكتب ؟ مجموعة من المناقشات الجدلية حول عبارة من العبارات لا تكشف عن حق ولا تهدى الى يقين، وهذا هو دل العلم فى نظرهم

أما الكون وما فيه من عجائب وبدائع ، وأمامتابة آراء العلماء الوصول الى الحقيقة ، فلا يستحق منهم بحثا ولا اطلاعا ، ولماذا ؟ هالك جوابهم الصريح كما نطق به احد كبار زعمائهم ، الشيخ عبد الرحمن عlish ، من هيئة كبار العلماء :

ولأن هذه الآراء والمذاهب ان كانت متعلقة بالدين فعلماء الاسلام ليسوا حيارى في دينهم يبحثون عن مذاهب وآراء تتعلق بهذا الدين ، وان كانت المذاهب والآراء في غير الدين فلا شأن لهم به .

هكذا هكذا !! فهل نريد دليلا أوضح من هذا على أن وصف العلم الذي يحملونه انما يتصفون به زورا وبهتانا ؟ وهذا اعتراف صريح منهم بأنهم لا يعينهم علم ولا معرفة حتي ولو كان هذا العلم يمس الاسلام من قرب أو بعد ، ويلصق أنف الاسلام بالرغام ، ولترغم تعاليمه الصريحة ونصوصه الجلية في الحث على البحث والنظر في ملكوت السموات والأرض لأن الشيوخ الأزهريين أمناء الدين ! وحملوا الاسلام في العالمين ! لا يعجبهم هذا النوع من العلم !!

فقوم هذا مبلغ عقليتهم ومقدار فهمهم للحياة واستهتارهم في الغفلة عما يحيط بهم لا يمكن أبداً الا أن يعيشوا أسراء أو هامهم ، ولا يمكن الا أن يكونوا ضد أي حركة عليية في الأزهري ، لأنهم أعداء العلم بطبيعة جهلهم (والناس أعداء ما جهلوا) وما داموا أعداء العلم الذي هو عدو الجود ، فلا يمكن الا أن يكونوا رجعيين بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها .

هذه أهم عوامل الرجعية في الأزهري ، كما نرى ، وأخطر العقبات الكأداء التي قامت في سبيله ولا تزال قائمة ، وهناك غيرها مما لا يبلغ في الخطورة مبلغها ، وكلها قائم على الاوهام والرثة وبعض الافكار البالية . هلى أنه ما دامت الافكار قد اتجهت الى اصلاح هذا العهد وتغيير نظامه القائم ، فلا بد من أن تغلب روح الحياة القوية الجبارة على كل ما يكتسب طريقه حتى يصل الى حيث تقضى نظم الحياة وأوضاع العصر «الحاجري»